ماليزيا..
بلاد تتنفس السياحة

حينما يتداعى اسم ماليزيا على الذهن فإن صورة نمر متوثب تخطر في لحظات ومعها صورة بطل قومي يدعى مهاتير محمد، وينطق محاضير أحيانا، إذ انها البلاد التي عدت ضمن النمور الآسيوية التي وثبت بسرعة وكان رئيس الوزراء مهاتير مصدر إلهام لشعب صنع معجزته التعليمية قبل أن تكون اقتصادية، وكانت الفترة التي تولى خلالها منصب رئيس الوزراء بين عام ١٩٨١ و٢٠٠٣ رحلة بناء على يد رابع رئيس حكومة فيها.

محمد بن سيف الرحبي

كانت كلمات الفخر بادية على حارس مسجد انغرا وهو يقول إن الآخرين يتحدثون عن برج يفخرون به ونحن لدينا برجان.. قلت له إن قلعتكم الأهم هي ماليزيا التي لم تنخدع بالبرجين ولا بعشرات أخرى، بل بالمعرفة التي وجهت أنظار العالم إليكم.

كلما فكرت في سياحة أوروبية أضيف بأحد بلدانها رقما إلى قائمة اسفاري نهض شيطان الإرهاب، وهو لم ينم اصلا، فأقول في نفسي لماذا أوجّه بصري نحو بلادا تشك في هويتي وديني طالما أن هناك بلاد أخرى تستقبلني فأسمع في فجرها نداء الله أكبر، وأسير في شوارعها مرفوع الجبين بعيدا عن نظرة ارتياب من شرطي، وأدخل متاجرها دون نظرة احتقار من بائع.. كوني عربيا أو شرق أوسطي.. أو ملونا!!

ماليزيا التي أصبحت قبلة السياحة العربية تأخرت في زيارتها كثيرا لأن اختيار المدن يأتي مصادفة قدرية كاختيار لون الملابس أو فص خاتم.. تحط الأمكنة على الذهن فيتدخل قدر ما للذهاب نحو بلد تشفع له سيرته الجمالية والبشرية.. وأشعر كم موجع أن أغادر كل الدنيا ولم اذهب الى كل مدن الدنيا.

كوالالمبور بعيدة والطائرة المتسعة على أحلام مسافرين، مزدحمة بهم، حيث تغدو ماليزيا الخيار الأنسب للسياحة مع حسابات السفر الصيفي والمدن المحترقة بمخاوفها والرعب العابر بالذئاب المتجمعة أو المنفردة.

لم أشعر أني ادخل مطارا يقصده كل هؤلاء البشر فخلال دقائق كانت موظفة الجوازات تضع ختما على جوازي حيث لا طوابير ولا انتظار ولا تأشيرة قالت عنها موظفة الطيران في مطار مسقط ستجدها مع الوصول، لا حاجة لنا بها.

أجد في الأرض الماليزية، فور خروجي من مطارها حينما كانت شمس النهار تختفي، بلادا انحازت للرقي.. واقرأ المفردة من زاوية النظام والنظافة وتعامل الشعب، وأغلب الشعوب في الشرق الآسيوي تتميز بلطف،

وجدته في تايلند وسريلانكا وإندونيسيا ووصولا إلى كوريا الجنوبية والصين واليابان.

عبر الوجوه السياحية المتكاثرة أحسست أن أوروبا جاءت إلي لتكون معي في ماليزيا.. فليست مقصدا عربيا وخليجيا فقط، لكنها قادرة على إيجاد التنوع في مساحة تزيد قليلا عن مساحة السلطنة لكن يسكنها أكثر من ثلاثين مليون شخص.. متعددي الأعراق واللغات.. في السوق الهندي تكتسب الوجوه ملامح التسامح بلون لا يشذ عن فسيفساء النقش الإنساني في البلاد بجوار الصيني والسكان الأصليين.

السلاسة هي الرهان الأول للسائح لتحقيق متعته حيث لا تجد تعقيدا، فكل شيء يسير بهدوء، فلا فوضى في الشارع، ولا أصوات عالية، ولا أدخنة البشر والمكان تحاصرك.. فقط تجنّب شارع العرب لتسلم أكثر، رغم أن السائح يجد فيه لغته.. وخدماته ممكن تصديقها.. إنما ببعض الحذر.

كوالالمبور.. تسوق وثقافة

أينما يمممت وجهك في وجه العاصمة كوالالمبور تجد مجمعا ضخما للتسوق كأنما المدينة سوقا كبيرا وانيقا لتسير فيه متسوقا ومتأملا، قال سائق سيارة الأجرة إنها كثيرة فوق ما ينبغي، لكنه لم يفطن إلى أن بلاده قبلة للسياحة الخليجية وفي مفرداتها التبضع إذ عين بعض السياح منّا على «الأسواق» أكثر حرصا من افتتانها بالطبيعة، خاصة ممن يجدون فارقا في الأسعار.. والمستثمرون في بناء تلك المجمعات لو لم يجدونها الدجاجة التي تبيض ذهبا لذبحوها على مأدبة عشاء عمل، وحولوا اموالهم صوب ما يجعل الدولار خمسة دولارات.

مدينة تحفّها البنايات العالية لكنها الارتفاعات الأنيقة، ثم تتداخل مع أطراف العمران مع الجبال الخضراء فتبدو اللوحة مفعمة بالجمال الداعي للتأمل في بلاد نهضت وصنعت مجدها، بما يريده من قوة اقتصاد.. لكنها القوة الناعمة التي تصنع الحياة والبهجة.

كان حظي ان باب الفندق يبعد ٣٠٠ متر عن البرجين الشهيرين، أبرز معالم كوالالمبور.. وفيهما وحولهما عشرات المجمعات التجارية التي تعرض كل شيء، من الماركات العالمية إلى المطابخ المتعددة، من أقصى الغرب إلى أدنى الشرق.

البرجان حياة يومية تجمع إليها عشرات الآلاف، أو اكثر، معلم اسمنتي لكنه مبهج، كانا أطول برجين في العالم منذ بنائهما بين عامي ١٩٩٨ و٢٠٠٤، قبل ان تنافسهما مدن أخرى تاركة برجي بتروناس مع الهوائي فوقهما ٤٥٢ مترا لكن الارتفاع إلى الطابق العلوي ٣٧٥ مترا فقط، وبكل برج ٨٨ طابقًا و٧٨ مصعدًا، واللافت في المصاعد انه تم تركيب مصعدين فوق بعض، أحدهما للأرقام الفردية والآخر للزوجية.

المثير في موضوع البرجين أن بناءهما أسند إلى شركتين مختلفتين لضمان سرعة الانجاز والتنافس بينهما.. وكان الفارق بين الشركتين تأخر وصول إحدى مانعتي الصواعق، واحدة من كوريا والاخرى من اليابان.

أقاوم زحام (المولات) بمتنفس ثقافي فأقصد متحف الفنون الإسلامية حيث العلاقة بين ماليزيا والإسلام بدأت قبل ٧٠٠ سنة لكنه تجذر في الثقافة القومية وساد أكثر مما عرفته البلاد من بوذية وهندوسية وغيرهما.. المتحف ليس ضخما لكنه دال على زمن معرفي وتاريخي أكثر من كونه، يبدأ بمخطوطة كتاب دلائل الخيرات الذي يضم مخطوطات الصلوات على النبي من القرن السادس عشر الميلادي وحتى التاسع عشر، الثناء والمديح على النبي محمد عليه الصلاة والسلام «المؤلفة بواسطة الإمام الصوفي الشهير الإمام الجزولي» كما يشير الكتيب الذي يوزعه المتحف، حيث أصبح «دلائل الخيرات» الأكثر شهرة في الصلاة على النبي في المغرب موطن الجزولي إضافة إلى انتشاره والاحتفاء به على امتداد الأراضي الإسلامية، و«قد ألهم الخطاطين والمذهبين والرسامين لتحويله إلى لوحات تعكس الخصائص الفنية المميزة للعصور الإسلامية عبر القرون، كما تدل هذه المخطوطات المذهبة على تقدير السلاطين والأمراء للخطاطين ولأهمية محتويات دلائل الخيرات، كما تعكس المهارات والتقنيات المستخدمة من قبل الحرفيين».

ثم تتعدد القاعات بالمتحف الذي افتتح عام ١٩٩٨ لتخصص واحدة لمخطوطات مصاحف تعود لمئات السنين، وفي الصفحات دلالات بينة، حيث الزخارف المبهرة في بعضها، كما ضمت القاعات الآخرى أزياء قديمة لحكام ومحاربين ونساء ووصولا إلى الأسلحة..

وقد عمد المتحف إلى اقتناء مجمعة من تحف مختلف مناطق العالم الإسلامي، من الصين والهند وجنوب شرق آسيا، إضافة إلى تحف من إيران والشرق الأوسط، وتوزعت على صالات عرض طبقا للتركيبة العرقية لماليزيا، إنه قصة حياة تستحق القراءة لهذه الدولة المنفردة بتاريخ وثقافات وقوميات.

هذا المعنى بدا واضحا في المتحف الوطني القريب منه حيث القسمين اللذين يعرّفان بالبلاد.. تاريخها وحاضرها بمجسمات وصور ومقتنيات دالة على مراحل بناء أمة عاشت مخاضات عدة لكنها آمنت بالتعليم والتخطيط، معززة نهضتها بمقومات الإنسان والطبيعة، تجولت في صالات العرض متعرفا

على نماذج من الحياة الثقافية والفنية للبلاد، حيث العادات والتقاليد والحرف اليدوية والأنشطة الاقتصادية والحيوانات والنباتات والأسلحة والعملات ونماذج من صحف قديمة، كما كان لافتا تلك الآثار الشاهدة على زمن مضى، كالدراجة الهوائية القادمة من مطلع أربعينيات القرن الماضي، والقطار البخاري وأول سيارة بروتون صنعت فى ماليزيا، ونموذج لأحد القصور الماليزية.

المتحف الذي أنشيء عام ١٩٦٣ صمم مبناه ليشبه الى حد كبير نظام القصور الماليزية القديمة ، ويوجد به أيضا معرض للآلات الموسيقية، إضافة إلى مختبر ومكتبة تضم نحو ٦٥٠٠ عنوان لخدمة الباحثين في مجالات علوم الآثار والاجناس والتاريخ الطبيعي وغيرها.

تتبعت الخطى إلى شارع العرب، كان المطعم الإيراني أمامي، استعدت قول سائق سيارة الأجرة اننا نحتسب الإيرانيين عربا لكنهم يغضبون.. إنها الحميّة القومية يا ابن البلاد نحملها نحن البشر كبصمات اصابعنا!.

مرتفعات خضراء بنكهة الفراولة

أسير إلى مرتفعات جنتنغ بين زهو الجبال الشامخة بلون أخضر، تغطيها السحب قليلا لكنها لا تمنع الرؤية، ساعة من العاصمة كوالالمبور لكنها مشاهد فارقة بين ما يقع في قلب المدينة من معمار ومباركات.. وما يشهق في محيط اللون الأخضر من جمال.

دور سائقي سيارات الأجرة والعاملين في السياحة، كما لاحظت في عدد من دول العالم الترويج لسياحة بلادهم وصناعاتها، يحرصون على التوقف أمام المناظر والمصانع لتلقي نظرة وغالبا ستصور وترسلها لأصدقاء هناك قد يأتون في وقت تال.. وقد يشترون بضاعة تحقق فائدة للاقتصاد الوطني وهم ضمن دورته بالطبع... أما في بلداننا العربية فسائق (التاكسي) إذا لم (يقرفك) بسماع قصة حياته أو ظروف بلاده (القارف منهما بنفسه) فعلى الأقل سيجعلك تودّ مفارقة بلاده فورا.. بالنكد والاستغلال!

بدأ المشوار بمنحل للعسل، ثم الشيكولاتة وبعدها الفراولة وهكذا تدفع رسوم الدخول في أغلب الأماكن التي تدخلها، اشتغال سياحي مثر.. للزائر وهو يستمتع حيث الرسوم بسيطة.. وللبلد حيث تتحول قطرات الرسوم البسيطة إلى نهر يصب في مصلحة الدخل الوطني.. مثلما هي رسوم الطرق السريعة.

يمكن صعود مرتفعات جنتنغ بالسيارة أو عبر رحلة جميلة تطير بها فوق قمم الأشجار الشاهقة تتقلك عربة التيلفريك لمسافة طويلة تمتد في ذلك الجمال المدهش اكثر من ثلاثة كيلومترات تصعد ١٧٤٠ مترا في جبال تيتيوانجسا.

الحركة في فضاء المكان قمة المتعة فالعربات المعلقة أشبه بحركة سيارات تطير في الفضاء لولا ذلك الحبل المتين القادر على وضعها كحبات مسبحة تجيء وتروح بالبشر كل منهم يتأمل ويعيد حساباته.. تجاه الكون امامه أو تضاؤله أمام جمال الطبيعة وقدرة الإنسان، عبر العلم والتفكير، على التحليق في فضاءات تتيح له حياة أعمق من المتعة.

حالة مدهشة أن تطير فوق قمم الأشجار، العربة الصغيرة كأنها لعبة سحرية مستلّة من فيلم رسوم متحركة، المبنى الذي كان يعانق السحاب على مقربة منك.. في تلك القمم تجد الفنادق والمجمعات التجارية والبنايات بألوان تلقي ببهجتها إلى الروح وهي تصعد القمم وتندمج مع الطبيعة.. روح الأشجار وانفاس السحب.

ولأن السياحة تحتكم أيضا إلى تراكم خبرات من سبقونا فقد نصحنا السابقون بزيارة كاميرون.. التي أخذت من الدولة الأفريقية القصية الكاميرون اسمها، حسب الصورة الذهنية لمن يسمع الاسم، كما اتخذت سائر البلاد من علم امريكا رسمه ليغدو العلم الماليزي كأنه الأمريكي لولا ذلك المربع الأزرق رمز المياه وعليه الشمس دلالة النهضة والنجمة في إشارة إلى الدين الإسلامي..

لكن كاميرون الماليزية انحازت في تسميتها لمكتشفها البريطاني وليم كاميرون عام ١٨٨٥، والمنطقة التي طورت عام ١٩٣١ تعد اكبر المحطات الجبلية التي تم إنشاؤها من قبل البريطانيين، وتقع فى الشمال الغربي من ولاية باهانج على ارتفاع يبلغ ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ متر عن سطح البحر على بعد ما يقارب من ٦٠ كم شمال مدينة تابا.

الطريق إلى مرتفعات كاميرون طويل يزيد عن ساعات ثلاث، لكن المتعة أن تحفك الأشجار على الضفتين، نخيل الزيت التي يقول عنها السائق بأن نسبة الكوليسترول المرتفعة فيها أوقفتها عن دخول امريكا، علّق مازحا أن الوجبات السريعة والمياه الغازية القادمة منها خالية تماما من الكوليسترول، لكنه الكوليسترول الإسلامي يا صاحبي!

استقبلتنا كاميرون بحقول الفراولة ومناحل العسل ومشاتل الورد كما فعلت جنتنغ تماما، لكنها كافأتنا على تحمل الطريق إلى تلك المرتفعات بشلال جميل وتدرجات أشجار الشاي، والأهم ذلك الكوب من الشاي بالحليب كالذي نحبه، سائق سيارة الأجرة قال إنه، خلال اسبوعين، جميع زبائنه عمانون كما قال بائع الشاي انه عمل ١٥ عاما في السلطنة.. لكن لم ينفعنا ذلك في الحساب فاكتفينا بنصائحه لأفضل الأنواع بما زاد علينا، ربما.. الحساب!

توقفت قليلا أمام مجموعة منازل مبنية من الخشب، قال السائق إن هؤلاء لا دينيون، يعيشون قريبا من الطبيعة، لكن هناك توجهات لإدخالهم الدين، تعمقت في المكان أكثر، فوجدت مبنى صغيرا يختلف عن المنازل الخشبية، وإعلاه كان يرتفع الصليب.

بلاد تتنفس.. سياحة

عشت بلادا تتنفس حياة، وتعرف كيف تبدو على خارطة السياحة رقما مهما يأتيها الزوار من كل مكان حيث القيمة المضافة من هكذا منتجات متحققة، فالمنظومة متكاملة رغم كل التحديات.

في آخر تجوالي فيها عشت تجربة مهمة بزيارة منطقة نياجرا.. متعة الاكتشاف لعالم يبدو غريبا في سياق معرفتي السياحية بالبلدان، ففي هذا المكان نهر تاهان، يشبه الوادي معنا وقت نزوله لكن القوارب تسير في

المجرى حاملة السياح ذهابا وإيابا، كما أن رحلة أخرى في داخله تجعل من التجوال متعة، حيث تتبادل القوارب رشّ بعضها البعض مما اغرقنا في التجربة حد حاجة القارب لغرف المياه من باطنه، ولاحقا عند وصولنا الفندق لم يترك السائق حقائبنا فبقينا مبللين بماء لا ينقصه الوحل، انتظارا لوصول السيارة التي ابتعدت كثيرا عن المكان.

التجربة الأخرى في أرجاء الادغال بالسير على ممر لا يتسع لخطو قدمين معا معلق بالحبال على ارتفاع يبلغ ٤٥ مترا أحيانا عن سطح الأرض، والمسافة بضع مئات من الأمتار لا ينفصل بينها إلا جذوع الأشجار المربوط بينها الممرات حيث حول الشجرة دائرة أشبه باستراحة.

والتجربة الثالثة الجلوس مع ساكني الادغال، كأننا في أفريقيا حيث الوجوه السمراء تتخذ من الغابة مسكنا ولا يعرف أطفالها الذين ينظرون إلينا بعيون جافة لا مبالية ومحايدة، المدارس ورجالها لا يعملون إلا في الصيد لتأمين قوتهم، شرح لنا المرشد كيف أنهم يضعون الميت على جذع شجرة، ويغادر أهله المكان الساكنين فيه ليعودوا بعد سنوات، وتحلق الأوروبيون حول مشعل النار بطريقة بدائية وتجربة الصيد بواسطة نفخ عصا طويلة لينطلق منها سهم صغير قادر أن يصيب / يصيد طائر.

أما الرابعة فاعتذرت عن دخولها وهي السير في الادغال ليلا ولا ضوء إلا مصباح الهاتف المحمول، سألت مشرف الرحلة عما يمكننا رؤيته فأجاب: عناكب وفراشات.. وعقارب وأفاعي.. فقط!

لكن السياح الاوروبيين يملكون الشغف للتجربة، وكانت آثار لسعات الحشرات بيّنة على الأجساد البيضاء المكشوفة، كما كانت فراشة بحجم الكف تسقط أمام الغرفة بما يكفي لأعرف حجم الفراشات في تلك الادغال.. فكيف بها الافاعي؟!

تأسس منتزه نياجرا (تامان نياجرا) في جبال تيتوانغسا، وتعني الحديقة الوطنية، على مساحة تبلغ ٤٣٤٣ كم مربع ضامّة أقدم الغابات الاستوائية في العالم وهي موطن لحيوانات ونباتات استوائية وأشجار تعود أعمارها لـ ١٣٠ مليون سنة، بما أهّله ليكون ضمن أشهر الوجهات في ماليزيا، معالم متنوعة ومطاعم وكهوف وأماكن تخييم وشلالات على امتداد النهر، كما يعد نهر تيلمنج أهم أنهار هذه الغابات حيث يستمتع السائح بمشاهدة العديد من الحيوانات والنباتات و الحشرات والطيور في رحلة عبر التاريخ، إذ إن هذه الغابات من أقدم الغابات المطيرة على وجه الأرض.

كان مثيرا أن نصل المتنزه بسيارة ثم نغادرها عبر النهر على قارب صغير جدا عرضه بالكاد يتسع لشخصين، حقائبنا معنا نجتاز مياه «الوادي» حيث تظهر خبرة ربانه في تفادي سرعة التيار أحيانا أو المسارات المتعرجة للمياه داخل امتداد مساحة النهر الذي يبدو أنه في مستواه الأدنى صيفا.

في بيتالنج.. الصيني

في كل مكان يؤسس الصينيون مدينتهم على خارطة البلدان، فكان الحضور الصيني طاغيا في بلاد تعد أشبه بالحديقة الخلفية لهذه الأمة، في شارع بيتالنج يمكنك الحصول

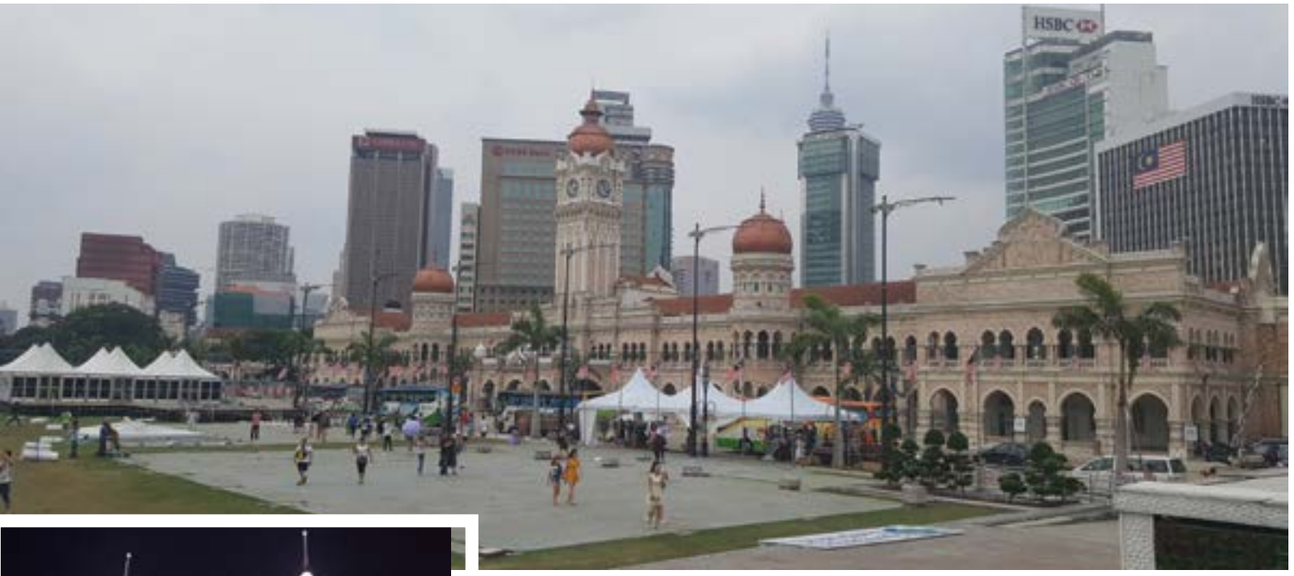

على ساعات من نوع رادو وورولكس وغيرها من الاسماء الفخمة بأربعة ريالات وحقائب لأشهر الماركات بأقل من ذلك لكن يتوقف على مهارتك في التفاوض فكل شيء يبدأ بنصف قيمة ما يقوله البائع عند آخر سعر ينطقه.

يقال إن بدايته تعود إلى زمن قديم كانت ماليزيا فيه تسمى «مالايا» ويعمل بها عدد كبير من الصينيين في مناجم القصدير التي أغلقت بعد ذلك أثناء فترات الحروب، فكان لزاما أن يغادر الصينيون البلاد حتى تلقي الحرب أوزارها، لكن لاحقا عندما عادوا لم يجدوا المصانع تعمل كالسابق، فهموا بالعودة إلى وطنهم مرة أخرى لولا «ياب أه لوي»، أحد الشخصيات البارزة الذي أنشأ مطحنا في شارع بيتالنج داعياً رفاقه لافتتاح محلات تجارية معه في نفس الشارع، انطلقت فكرته لتزخم المكان بمشاريع ومحلات تكاثرت مشكلة لوحة صينية.. كأنها مدينة.

زيارة المدينة الصينية متعة تسوق وتجوال، وحيرة بين تشكيلات لا تحصى من البضائع، أسعار رخيصة ومفاوضات تنتهي برضوخ الطرفين، البائع والمشتري، لكن على الواجهات ما يغري أكثر، لكن هناك أيضا ملامح الحياة الثقافية للصينيين، وأهمها المظهر الديني حيث يوجد معبد «سري ماهاماريامان»، ويعد الأقدم والأجمل تصميما في ماليزيا، بني عام ١٨٧٣م.

على مقربة تبدو الشوارع حيّة بزحام الوجوه الآسيوية الاخرى، هناك حي الهند الصغرى في منطقة بريكفايلدس، في محلاته منتجات هندية، ملابس ومواد غذائية وتذكارات وسائر ما يتصل بثقافة الهند وصناعاتها.

رطوبة الجو، والمطر الخفيف، يحفزان للبحث عن المجمعات التجارية الضخمة والفخمة.. وفارق بين أسعار الماركات الأصلية والمقلدة، لكن الأجواء العامة تحفّز على المناورة في بلد يحترم السياح لأن رهانه الاقتصادي عليهم.. والأهم أن الوضوح علامة مميزة في التعامل.. سائق الأجرة يحدد السعر مسبقا أو يشير إلى العداد.. وفي المطاعم تنوع للغريب.

كانت صالة الاستقبال في الفندق تعج بالعائلات الخليجية.. لكن لا أثر لقناة عربية في قائمة المشاهدة كما أنني افتقدت مجسم جامع السلطان قابوس الأكبر في متحف الفن الإسلامي بينما هناك مجسمات لمساجد أصغر عنه وأحدث منه!.